العاصفة الثلجية

قصة بقلم ناطق خلوصي

في اذيال نهار دافيء مشمس هبت ريح غربية باردة فتمايلت رؤوس الاشجار بحركة متوترة .. كان الفرسان يتمطون بكسل فوق أسرجة خيولهم المطهمة وهي تدور بهم في الظل ، فتنطبع آثار حوافرها فوق محيط دائرة فارغة .. وحين لسع البرد الفرسان نزلوا من خيولهم على عجل .. ربطوا الخيول الى جذوع اشجار التوت اليابسة واسرعوا عائدين الى بيوتهم لينعموا بالدفء . (كان الفرسان قد قضوا نهارا حافلا بالنشاط .. تراشقوا بالكلمات الى حد التعب ، القوا خطبا نارية ، انشدوا قصائد عصماء ، وهزجوا وهم على ظهور خيولهم .. لكن سيوفهم لم تكن معهم .. كانت متروكة في بيوتهم) .

بدات الريح الغربية الباردة تزداد حدة وعنفا . وعندما ادلهم الليل ونشر على الافق عباءة من الظلام الدامس ، بدات الريح تتحول ، وبشكل سريع ، الى عاصفة قاسية ، وما لبثت السماء ان بدات تنث نتفا من الثلج راحت تتراكم حتى غطت الارض بغطاء سميك من الصقيع ..

في المدينة :

اطل المذيع من على الشاشة الصغيرة بوجهه الحليق وبدلته الانيقة وأعلن : ان درجة الحرارة قد انخفضت بشكل سريع ومفاجيء ، وقد تساقطت بعض الثلوج فجمدت الحركة ..

وصرح مسؤول : اننا نبذل جهودنا لمجابهة موجة البرد الاستثنائية ، وقد قررنا تخفيض اسعار المحروقات ..

ولاحظ رجل اعتيادي : ان الاقبال ازداد على المدافيء بشكل غريب فارتفعت اسعارها بشكل عجيب ، كما اختفى الفحم من الاسواق ..

في المخيم القريب من المدينة :

تجمدت الثلوج محاصرة الخيام .. في خيمة محاصرة كان صبي صغير الجسم يرتعش وهو يكاد يلتصق بامه .

قال لامه :

ـ أحس بالبرد يلسع عظامي !

قالت له الام :

ـ التصق بي اكثر يا حسام . ستشعر بالدفء . زاد حسام التصاقه بها الى الحد الذي غاص فيه ذقنه في الخندق الذي يمتد بين ثدييها .. لامس ذقنه عظاما يابسة ..

ـ انك ترتجفين يا أمي !

ـ قلت لك التصق بي وسوف تشعر بالدفء ..

كانت هي الاخرى ترتجف فعلا ولكنها كانت تحاول عبثا ان تمنح جسمه الصغير شيئا من الدفء . من الخارج كان صرير الريح يأتي مثل عواء ذئاب جائعة في عري الصحراء . ومن خلال شقوق الخيمة وليس في الداخل سوى كتلة كثيفة من العتمة ..

سألها بقلق :

ـ هل سيستمر البرد طويلا ؟

قالت :

ـ انها موجة طارئة .. ستزول عن قريب .

صمت قليلا وما لبث ان قال :

ـ هل اغمد الفرسان سيوفهم تماما ؟

اجابته بانفعال :

ـ يبدو انهم في طريقهم الى ان يفعلوا ذلك !

ـ ان مدرس التاريخ يقول ان (ابو علي اياد) يرفض ان يغمد سيفه . يرفع راسه احيانا وينفض عنه التراب ويترقب لحظة تعانق عقربي الساعة الحاسمة .

ـ ليس وحده الذي يفعل ذلك .

(انهم جميعا يفعلون ذلك .. ينهضون برؤوسهم المدماة ويتجولون في كل مكان ويبصقون على كل سيف يرونه نائما في قرابه) .

وعلى صورة (ابو علي اياد) وهو يسير برأسه النازف دما ، اغلق حسام عينيه ، وكانت الثلوج في الخارج ما زالت تتساقط ..

ظلت العاصفة تنشر اجنحتها الثلجية على الارض على امتداد ايام متتالية . وحين بدات تلك الاجنحة تنكمش بدات الاشياء تعود الى حالتها الطبيعية بصورة بطيئة ..

في اول يوم ذهب فيه حسام الى المدرسة بعد أن بدات الثلوج تذوب ، كان حديث المحنة الهوجاء يدور بين الصبيان ، وكان حديثا موجعا .

« نفد الماء في اغلب البيوت وكان من العسير الحصول على مزيد منه بعد ان تجمد كل شيء » .

« ماتت امرأة عبد الوهاب . فاجاها الطلق وعسرت حين اشتد العصف الثلجي .. لم يكن بامكان زوجها المسكين ان يفعل شيئا » .

« ظلت زوجة ابراهيم واطفاله في الخيمة محاصرين بدون طعام

طوال الايام الثلجية. وكان ابراهيم غائبا عن الخيمة هو ورشاشته)).
« اقتلعت الريح خيمة حسان فلاذ واهله بخيمة جار لهم » .

كان الصبيان يروون ما حدث بمرارة وكان الغضب يلتمع في عيونهم . يحب حسام درس (التاريخ) وينشد اليه ويمنحه اهتمامه. حين يتحدث مدرس التاريخ فان كلماته تحمل حسام على اجنحة من الغضب الى الارض الاسيرة الحزينة .. لم يكن مدرس التاريخ يتقيد بقيود الكتب المقررة .. كان ينطلق بعيدا عنها حاملا معه خفقات قلوب تلاميذه ، يجوب بها كل ارض شهدت ميلاد فجر جديد بعد ليل معتم طويل .

في درس التاريخ لهذا اليوم ترك المدرس الكتاب جانبا . (كان يفعل ذلك دائما .. لا يريد ان يتوقف عند حدود ذكر التواريخ المحنطة في الكتاب) . تناول قطعة من الطباشير وكتب على اللوحة السوداء :

« من محاضر جلسات هيئة الامم المتحدة .

عام ١٩٦٧ : اتخذ مجلس الامن الدولي قرارا برقم (٢٤٢) يقضي بحل القضية الفلسطينية حلا عادلا .

عام ١٩٦٨ : اكد مجلس الامن على قراره المتخذ في العام الماضي.

عام ١٩٦٩ : قرر مجلس الامن العمل على بذل الجهود لتطبيق قراره المتخذ في العام قبل الماضي .

عام ١٩٧٠ : ناقش مجلس الامن تطور مشكلة الشرق الاوسط وقرر ان يسعى لتطبيق قراره المتخذ في العام قبل قبل الماضي .

عام ١٩٧١ : عقد مجلس الامن جلسة مطولة لمناقشة مسالة الشرق الاوسط وقرر بان يضاعف الجهود لتطبيق قراره المتخذ في العام قبل قبل قبل الماضي » .

وحين انتى من ذلك قال المدرس لتلاميذه :

ـ انتبهوا يا أولادي .

فانتبهوا اليه .. أشار الى القائمة المدونة على اللوحة السوداء وقال :

ـ ترون يا أولاد ان مجلس الامن ظل طوال هذه السنوات يحتفل بالذكرى السنوية لقراره (٢٤٢) التاريخي ! انه يمنحنا بهذه المناسبة شيكا ولكن بدون رصيد ..

اخذ مدرس التاريخ قطعة من الطباشير الاحمر اللون وشطب على القائمة المدونة على اللوحة السوداء بعلامة الغاء كبيرة . قال لهم بعد ذلك :

ـ سنتناول بالبحث بعض المقتطفات المنشورة في الصحف والتي لها علاقة بدرس التاريخ .

اخرج من حقيبته جريدة وقال :

ـ انظروا انها جريدة مطبوعة بحروف عربية .. ساقرا عليكم شيئا مما جاء فيها .

وبدأ يقرأ :

« من خطاب المندوب الامريكي في مجلس الامن :

ايها السادة . ان حكومة دولتي تسعى للوصول الى تسوية سلمية لقضية الشرق الاوسط ومن اجل تحقيق هذه التسوية قررت منح اسرائيل خمسين طائرة فانتوم جديدة » .

نظر المدرس اليهم والتقطت اذانهم كلماته الحارة :

ـ يا أولاد .. ان هذه الصقور القبيحة التي تحمل الموت والدمار لا يصعب اصطيادها .. انهم يصطادونها في اماكن اخرى مثلما تصطاد العصافير .

قلب احدى صفحات الجريدة وتوقفت عيناه عند ركن معين فيها.. قال بصوت حاد :

ـ ساقرأ عليكم ما كتبه احد علماء العصر هنا في هذه الزاوية من الجريدة .

وبدأ يقرأ ..

« ان الثور الجامح في ذروة هيجانه الان فما عليكم الا ان ترموا برماحكم الى الارض وتنشروا في وجهه المناديل البيضاء .. »

قال المدرس غاضبا :

ـ في هذا القول تزوير كبير .. حين يصارع واحد من الابطال الشجعان ثورا في الحلبة لا ينشر امامه منديلا ابيض .. على العكس انه يعمد الى اثارته الى حد الهيجان .. ينشر امامه منديلا احمر بلون الدم . ثم يمارس معه خبرته ومهارته وقوته حتى ينهكه ثم يباغته بالطعنة القاتلة .

اكد المدرس على عبارة (بالطعنة القاتلة) بان كررها اكثر من مرة . وعند هذه العبارة دق الجرس . .

عندما دق جرس الانصراف بعد انتهاء الدروس ترك حسام المدرسة وكانت كلمات مدرس التاريخ ترن في أذنيه ـ كان يجتاز الشارع في طريق عودته الى المخيم حين لمح شابا في مقتبل العمر يقف امام جدار كتبت عليه بالفحم الاسود وبخط انيق « عائدون ». (كان الشاب يحمل في وجهه اشارة الاستشهاد) احس حسام برغبة شديدة تلح عليه في ان يقف ويراقب الشاب . تأمل الشاب الكلمة مليا وتقدم من الجدار وأخرج منديلا بلون الكفن وبدأ يمسح الكلمة.. تجمع حوله ناس كثيرون .. رجال مسنون ونسوة متعبات وصغار تلتمع في عيونهم البراءة . بدأوا يثقبون ظهر الشاب بابر من النظرة المستنكرة : لماذا يفعل ذلك ؟ جاءت سيارة شيفروليه بيضاء فخمة تتهادى في الشارع مثل عروس . خفض سائقها سرعتها بشكل مفاجيء توقفت وانفتح بابها ونزل منها رجل بدين مثل بطة سمينة ، كان الرجل ابيض الوجه ، منتفخ الاوداج ، اصلع الرأس ، تتكور بطنه الى الامام مثل قربة مملوءة بالماء . كان ايضا يحمل في وجهه لوثة الاستسلام . وقف عند الجمع المحتشد قريبا من الجدار وصاح بكلمات متشنجة :

ـ ماذا تفعل يا ولد ؟ انك تجرح مشاعرنا ازاء القضية !

لم يلتفت اليه الشاب الذي كان يحمل في وجهه شارة الاستشهاد . ظل مستمرا في عملية مسح الكلمة المكتوبة بالفحم الاسود وحين أتم ذلك التفت اليه وتأمله جيدا ، ومسحت نظراته جسم الرجل البدين من قمة رأسه اللامع الى حذائه الصقيل .. كانت نظراته حادة وعميقة ودافئة . احس الرجل البدين بارتباك ذليل .. تحسس ياقته المنشاة وربطة عنقه الحريرية الصفراء بلون الذهب.. ألقى نظرات مرتبكة على بدلته الانيقة وحذائه .. تلفت حوله .. أصيب بمس من الاضطراب . قال صائحا في وجه الشاب .

ـ لماذا تنظر اليّ بهذا الشكل ؟ هل ترى فيّ شيئا غير اعتيادي؟

أطلق الناس المحتشدون ضحكات صغيرة . فهقه بعض الصغار.. انهم يعرفونه جيدا .. يعرفونه رجلا يحمل اكثر من شيء غير اعتيادي ... انه ينتفخ مثل برميل فارغ ، ويتحول احيانا الى بوق اجوف رخيص ، ويمارس بيع الاكاذيب) . التفت اليهم والقى عليهم نظرات تانيب . كان الشاب ما زال صامتا وهو ينظر الى الرجل البدين بعينين تلتمعان .

حين هدأت ضجة الضحك قال الرجل البدين :

ـ ليس من حقك ان تمسح هذه الكلمة .. اننا نعتز بها ...
ابتسم الشاب واخرج من جيبه سكينا ذات شفرة لامعة وحادة . شرط ذراعه بالسكين فتدفق منها الدم . كان حسام يقف قريبا من الشاب.. سقطت قطرة من الدم على كف حسام .. احس بها دافئة ولم يمسحها ... بلل الشاب اصبعه بالدم المتدفق من ذراعه وبدأ يكتب الكلمة على الجدار من جديد ـ بدأت الحروف تضيء على الجدار ، وكان الشاب ما زال يبتسم . انفتحت العيون بشكل واسع .. ابتسم الصغار بتعجب واكبار .. سرى في المحتشدين تيار من السخونة .. كان الرجل البدين واقفا مثل تمثال من العجين. حين انتهى الشاب من كتابة الكلمة تماما صرخ الرجل البدين :

ـ امسكوه .. يخشى منه على السلامة العامة .

كان الشاب ما زال صامتا حين تقدم من الرجل البدين وفي يده المنديل المتسخ بالسخام . اقترب منه ومد يده نحوه ـ لم يحاول الرجل البدين ان يقاوم . بوغت باليد وهي تمتد نحو وجهه . لم يكن يتوقع ان يحدث ذلك ، مرر الشاب المنديل على وجه الرجل البدين .. ترك المنديل لطخة سوداء فوق جبين الرجل البدين ... انسحب الشاب بهدوء وبدأ يسير بخطى ثابتة . واذ كان يبتعد كان يكبر في عيون الصغار ويتحول الى عملاق يغرز قدميه في الارض..

ظل الرجل البدين مهملا في الشارع مثل كلب اجرب ، فتحرك بخطى ذليلة نحو سيارته ... حين وصل السيارة انعكس ظل اللطخة السوداء المطبوعة فوق جبينه على جسم السيارة الابيض الصقيل ...

ركض حسام الى أمه حاملا فوق كفه قطرة الدم الحمراء الدافئة ... كانت امه تقف امام الخيمة وفي يدها علبة من الصفيح مملوءة بالماء . مد اليها كفه التي تحمل قطرة الدم وصاح بفرح :

ـ لقد رأيت (ابو علي اياد) اليوم يا أمي .. منحني قطرة من دمه .. انظري .. انها تلتمع فوق كفي .

وضعت امه علبة الصفيح على الارض وراحت تتأمل كفه التي تحمل قطرة الدم .. قربت الكف من عينيها .. كانت قطرة لامعة ومضيئة .. سحبت كف حسام نحو فمها .. لثمت الكف .. كانت عينا حسام تمدان البصر بعيدا الى ما وراء الخيام .. كانت امه تنظر في نفس الاتجاه ايضا ، وكان يغمرها شلال من ضوء الشمس المائلة للحمرة والتي كانت قد بدأت تشرق منذ ان خمد جنون الريح الهوجاء ..

بغداد

ناطق خلوصي

دار الآداب تقدم

الموتُ حُبًّا ...

رواية تأليف

بيار دوشين

عشية الاضطرابات التي هزّت فرنسا في ايار ١٩٦٨ ، شعرت دانيال ، وهي امرأة شابة في الثلاثين من عمرها تمتهن التدريس في احدى الليسيات ، شعرت بانها تحب احد طلابها ، جيرار الذي كان قد اصبح في نظرها رجلا ، ولكنه قاصر في نظر القانون . وبادلها الطالب الحب .

وتفتح ربيع الحرية ذلك العام تحت الاعلام الحمراء والسوداء، واراد الاطفال ان يكونوا راشدين ، وعاد الراشدون اطفالا . وكان ذلك بالنسبة لدانيال وجيرار ، انبثاق حب مصمم على تحطيم جميع الحواجز .

ثم انتكست الحرية ، وبقي العاشقان وحدهما : ان الآخرين، ومؤيدي النظام ومؤيدي الثورة ، الموظفين والمكافحين ، يعودون الى الضوابط ويقومون بحساباتهم الصغيرة . اما جيرار ودانيال فيمثلان ، في نظر الجميع ، « الفضيحة » لانهما يرفضان ان يعودا الى الصف ، ولانهما يريدان ان يستمرا بان يكونا حرّين مالكين لقدرهما .

ويجري الانقضاض عليهما من كل مكان ، ويتحالف والد جيرار ، المناضل ، مع خادمي الدولة ، من قضاة وشرطة وعلماء نفس قمعيين ، ليعيدوا العاشقين الى « العقل » . ويظل دانيال وجيرار مصممين على المضي في معركتهما الى النهاية . ولكن هل تستطيع دانيال ، تلك الرفيقة النفس المثالية النزعة ، ان تحتمل اكتشاف الغباوة والشر البشريين بكل اتساعهما ؟ هل تحتمل هذا النظام الذي يحكمه التطهريون من كل اتجاه والذي يسحق الحياة كلها ؟

هذا ما تصوره هذه الرواية الرائعة التي اخرجها اندريه خيـاط فيلما يطوف الآن انحاء العالم ويشاهد اقبالا عظيما ينافس اقبال المشاهدين على فيلم « قصة حب » ...

صدر حديثا

الثمن ٣٠٠ ق . ل